ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ
أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى
مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾
بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ
أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾

ضرب : جعل(١).

تخافونهم كخيفتكم أنفسكم: أي أمثالكم من الأحرار(٢) أن يقاسموكم أموالكم كما يقاسم بعضكم بعضاً(٣).

جعل الله تعالى لكم أيّها النّاس مثلاً من أنفسكم كي تعقلوه وتتّعظوا به وتعملوا بموجبه. هل لكم أيّها الأحرار ممّا ملكت أيمانكم من العبيد من شركاء لكم فيما رزقناكم من أموالٍ ورياش، فأنتم وعبيدكم فيه سواءٌ وعلى قدم المساواة، وبالتّالي أنتم تخافون أولئك العبيد أن يكون حظّهم مثل حظّكم من الأموال والرّياش، وأن يكونوا لكم شركاء في كلّ ذلك، كخوفكم أمثالكم من الأحرار. والمراد بالسّؤال النّفي والمعنى أنّكم تأنفون أن يكون عبيدكم شركاء لكم فيما رزقكم الله تعالى من مالٍ وغيره، ومساوين لكم تماماً في الاستحقاق من ذلك الرّزق.

ولمّا كنتم لا ترضون أن يكون عبيدكم شركاءكم فكيف ترضون لله تعالى أن تجعلوا عبيده الّذين خلقهم شركاء له وأنداداً، وذلك باشراككم لهم مع الله تعالى

---

(١) الجلالين

(٢) الجلالين

(٣) تفسير الطّبرى ٢١/ ٢٥

في العبادة الّتي لا تصحّ إلاّ له عزّ وجلّ وحده دون سواه! أين ذهبت عقولكم حتّى إنّكم ترضون لله تعالى خالقكم ما لا ترضونه لأنفسكم!

وهكذا يبيّن الله تعالى آياته لقومٍ يستعملون عقولهم استعمالاً صحيحاً، ويفصّل حججه لقومٍ يتدبّرون ويعون ويتّعظون.

والحقيقة أنّ المشركين اتّبعوا أهواءهم بغير علم، وانساقوا وراء عواطفهم دون فكر، فضلّوا عن سواء السّبيل، واضلّوا غيرهم، وزادهم الله تعالى ضلالاً إلى ضلالهم. إنّ الّذي يضلّه الله تعالى ليس له من هادٍ، وليس له من ناصرٍ يصرف عنه عذاب الله تعالى أو يهوّنه.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ
ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ
وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا
دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

فأقم وجهك للدّين: فسدّد وجهك نحو الوجه الّذي وجّهك إليه ربّك يا محمّد لطاعته وهي الدّين(١).

حنيفا: الحَنَف هو ميلٌ عن الضّلال إلى الاستقامة. والحنيف هو المائل إلى ذلك، وجمعه حُنَفاء(٢).

فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها: فَطَرَ الله الخلق: أوجد الشّيء وأبدعه على هيئة مترشّحة لفعلٍ من الأفعال. فقوله: ﴿فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها﴾ فإشارةٌ منه تعالى إلى ما فطر أى أبدع وركَز في النّاس من معرفته تعالى. وفطرة الله هي ما ركَز فيه من قوّته على معرفة الإيمان(٣).

لا تبديل لخلق الله: لا تغيير لدين الله أي لا يصلح ذلك ولا ينبغى أن يفعل(٤). وهو دين الإسلام(٥).

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/ ٢٦

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «حنف» ١/ ١٧٦

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «فطر» ٢/ ٤٩٤

(٤) تفسير الطّبرى ٢١/ ٢٧

(٥) تفسير الطّبرى ٢١/ ٢٧

ذلك الدّين القيّم: ذلك الدّين المستقيم الّذي لا عوج فيه عن الاستقامة من الحنيفيّة إلى اليهوديّة والنّصرانيّة وغير ذلك من الضّلالات والبدع المحدثة(١).

منيبين إليه : راجعين إليه تعالى فيما أمر به ونهى عنه(٢)

واتّقوه: خافوا الله وراقبوه أن تفرّطوا في طاعته وتركبوا معصيته(٣).

فرّقوا دينهم : باختلافهم فيما يعبدونه(٤).

وكانوا شيعاً : وكانوا أحزاباً فرقاً كاليهود والنّصارى(٥).

فرحون : مسرورون يحسبون أنّ الصّواب معهم دون غيرهم(٦).

فسدّد وجهك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم ووجّهه لدين الإسلام، الّذي بعثك الله تعالى به، وبعث به كلّ المرسلين السّابقين، وأفْرِدْ ربّك بالعبادة، واستسلم له بالخضوع، وأذعن له بالطّاعة، مبتعداً ومائلاً عن كلّ ضلالٍ وانحراف، قاصداً توحيد الله تعالى، محقّقاً عبادة الله تعالى وحده دون سواه. وكما اتّجه الخطاب أساساً إلى المصطفى ﷺ يتّجه تبعاً إلى كلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة.

والمقصود بالوجه سائر الجسد لأنّ الوجه أشرف أجزائه.

وليس اتّجاه الجسد إلى دين الإسلام الّذي بعث الله تعالى محمّداً ﷺ بصورته الكاملة والأخيرة إلاّ تعبيراً عن اتّجاه القلب إلى الله تعالى وحده لا شريك له بالخشوع والخضوع، والنّفس بالرّجاء والخوف، والأعضاء بالحركة والعمل.

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/ ٢٧

(٢) الجلالين

(٣) تفسير الطّبري ٢١/ ٢٧

(٤) الجلالين

(٥) تفسير الطّبرى ٢١/ ٢٧

(٦) تفسير الطّبري ٢١/ ٢٧

إنّ اتّجاه الوجه إلى الله تعالى في الصّلاة الّتي هي عماد الدين وفي غير الصلاة، وتعلّق القلب المؤمن ببارئه الرّحمن الرّحيم، واشتياق النّفس المؤمنة المطمئنة لجزيل الثّواب على الأعمال الصّالحة الّتي تقوم بها الجوارح ابتغاء مرضاة الله تعالى، إنّ هذه النّعوت في مجموعها هي التّعبير عن الفطرة الي فطر الله تعالى النّاس وأوجدهم عليها.

فالزموا فطرةَ الله تعالى يا أيّها الناس(١) واستمسكوا بتلك الفطرة الّتي فطركم الله تعالى وأوجدكم عليها، فقد جعلكم بارئكم عزّ وجلّ صفحةً بيضاء نقيّة متّجهين بأصل تكوينكم وخلق الله تعالى لكم إلى توحيد ربّكم وإفراده عزّ وجلّ وعلا بالعبادة.

لا تبديل لخلق الله تعالى، فلا يستطيع المخلوقون تغيير أصل الفطرة المتّجهة إلى الله تعالى بطبعها، ولا تبديل لدين الله تعالى الّذي أرسل الله تعالى به رسله وهو دين الإسلام لله تعالى ربّ العالمين، وبذلك يُبْرِزُ دين الله تعالى إلى دنيا الواقع ما هو راسخٌ في أصل الفطرة كما خلقها الله تعالى من توحيد له عزّ وجل. وإنّ دين الإسلام الّذي بعث الله تعالى به محمّداً ﷺ هو الدين المستقيم والمحجّة الواضحة إلى جنّات النّعيم، ولكنّ أكثر النّاس وهم المشركون، لا يعلمون هذه الحقائق بسبب إغواء الشّيطان الرّجيم واتّباع أهوائهم ونفوسهم الأمّارة بالسّوء.

وإنّ الفطرة الّتي فطر الله تعالى النّاس وأوجدهم عليها بأن وُلدوا جميعاً موحّدين لله تعالى هي فطرةٌ غايةٌ في الرّقّة والشّفافية، اللّين والطّواعية، بحيث إنّها بإغواء من الشّيطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسّوء قابلةٌ لأنّ تنحرف عن سواء السّبيل، ويُخَطَّ عليها ما ليس من أصلها ولا طبعها. وهذه المعاني الّتي ترتبط بالفطرة عبّر عنها الحديث النّبويّ الشّريف أحسن تعبير. روى البخاريّ في صحيحه(٢) أنّ أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ما من

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/١٦٦ وفتح الباري ٣/٢٤٨

(٢) فتح الباري ٨/ ٥١٢ حديث رقم ٤٧٧٥ وانظر حديث رقم ١٣٨٥_فتح الباري ٣/ ٢٤٥

مولودٍ إلاّ يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كما تُنْتَج(١) البهيمة بهيمة جمعاء(٢) هل تحسّون فيها من جدعاء(٣)؟ ثمّ يقول : ﴿فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها، لا تبديل لخلق الله. ذلك الدّين القيّم﴾.

الزموا فطرة الله تعالى منيبين إليه عزّ وجلّ طائعين له، منتهين عمّا نهاكم عزّ وجلّ عنه، واتّقوا الله تعالى وخافوه، وأقيموا الصّلاة عماد الدين بكامل شروطها، ولا تكونوا من المشركين، من الّذين اختلفوا في دينهم وكانوا شيعاً وأحزاباً، كلّ حزبٍ فرحون بما لديهم من معتقد، سعداء بما يسلكون من طريق، اعتقاداً منهم بأنّهم وحدهم المهتدون وأنّ الآخرين ضالّون.

«وهذه الأمّة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحلٍ كلّها ضلالة إلاّ واحدة، وهم أهل السّنّة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ، وبما كان عليه الصّدر الأوّل من الصّحابة والتّابعين وأئمّة المسلمين، في قديم الدّهر وحديثه، كما رواه الحاكم في مستدركه أنّه سئل عليه السّلام عن الفرقة النّاجية منهم فقال : ما أنا عليه وأصحابي»(٤).

وهكذا يتبيّن أنّ الفطرة تتجسّد في إفراد العبد الله تعالى بالعبادة، والأوبة إلى الله تعالى بفعل ما أمر عزّ وجلّ به والانتهاء عمّا نهى عنه وزجر، وتقوى الله تعالى في السّرّ والعلن، وهي الوجه الآخر للإحسان، بأن تعبد الله تعالى كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك، وإقام الصّلاة عماد الدّين، دليلاً على إقامة سائر الأركان ابتداءً بالشّهادتين، والابتعاد عن الشّرك ومفارقة الدّين.

---

(١) تُنْتَج البهيمة أي تلد، يقال نُتِجت النّاقة إذا ولدت. لسان العرب: «نتج»

(٢) جمعاء: لم يذهب من بدنها شيء، سمّيت بذلك لاجتماع أعضائها. فتح الباري ٣/ ٢٥٠

(٣) جدعاء: مقطوعة الأذن. فتح الباري ٣/ ٢٥٠

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٢٣

(٤)

(المشركون يصرّون على شركهم وكفران النّعم فيخزيهم الله تعالى وينصر المؤمنين عليهم)

الآيات (٣٣ ـ ٤٧)

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم
مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ
ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ
سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾

دعوا ربّهم : أخلصوا لربّهم التّوحيد وأفردوه بالدّعاء والتّضرّع إليه واستغاثوا به(١).

منيبين إليه: تائبين إليه من شركهم وكفرهم(٢)

سلطاناً: كتاباً بتصديق ما يقولون وبحقيقة ما يفعلون(٣)

فهو يتكلّم بما كانوا به يشركون: فذلك الكتاب ينطق بصحّة شركهم(٤)

وإذا مسّ النّاس ضرّ وأصابتهم شدّة من مرضٍ أو كربٍ أو فقرٍ أوجدبٍ وما إلى ذلك، دعوا الله تعالى وحده لا شريك له، راجعين إليه، تائبين من ذنوبهم وشركهم. ويستمرّ الدّعاء ما دام البلاء. ثمّ إذا كشف الله تعالى عنهم الضّرّ، وأذاقهم منه رحمة، في هيئة الصّحّة، وكشف السّوء، والرّزق الواسع، والخصب وما إلى ذلك، إذا فريقٌ منهم يشركون بربّهم، ويأتون عظيم الذّنوب، ولا يخفى دور إذا الفجائيّة(٥) في القول: ﴿إذا فريقٌ منهم بربّهم يشركون﴾ في التّنبيه على إتيان القوم من سوء الصّنيع ما يوقع في الدّهشة، بسبب عدم مبادلتهم إحسان الله تعالى إليهم بالإحسان وتوحيد الله تعالى وعمل الصالحات.

(١) تفسير الطّبري ٢١/٢٨.
(٢) تفسير الطّبرى ٢١/٢٨
(٣) تفسير الطّبرى ٢١/٢٨
(٤) تفسير الطّبرى ٢١/٢٨
(٥) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/١٦٨

إنّ هؤلاء يشركون بربّهم جلّ وعلا ليكفروا بما آتاهم الله تعالى من نعم، فاللّام هنا لام العاقبة(١) وكي يجحدوا كَشْفَ الله تعالى عنهم الضرّ الّذي كانوا فيه، وإبدال ذلك بالرّخاء والخصب والعافية(٢) وعلى سبيل التّهديد يؤمر القوم بأن يتمتعوا إلى حين، بهذه النّعم الّتي كفروها، والمنن الّتي جحدوها، فسوف يعلمون عاقبتهم الوخيمة، في القريب العاجل، أو في البعيد الآجل.

وعلى سبيل الإنكار على القوم يكون الاستفهام الّذي يفيد النّفي: أم أنّ ربّ العزّة والجلال أنزل عليهم كتاباً فهو يقرّهم على الشّرك ويدعوهم إليه وينطق بصحّة شركهم! والمعنى: لم يكن شيءٌ من ذلك(٣).

ومن البيّن أنّ هذا الفريق من النّاس عرف الله تعالى في وقت الشّدّة فأخلص له العبادة وحينما انكشفت الغمّة وذاق الرّحمة عاد بعضهم إلى الشّرك الّذي كان عليه وجحد النّعمة وبدّل نعمة الله تعالى كفرا. والمعروف أنّ مشركي العرب يقرّون بتوحيد الرّبوبيّة فالله تعالى خالقهم ورازقهم وفاعل كلّ شيء، ولا يقرّون بتوحيد الألوهيّة ولا يفردون الله تعالى بالعبادة إلاّ ساعة الضرّ ووقت الشّدّة.

---

(١) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ١٦٨ وتفسير ابن كثير ٦/ ٣٢٣

(٢) انظر تفسير الطّبري ٢١/ ٢٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٢٤

وَإِذَآ أَذَقْنَا
ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

وثمّة فريقٌ آخر من النّاس إذا أذاقه الله تعالى رحمةً من صحّةٍ وثراءٍ وجاهٍ وما إلي ذلك فرح به واطمأنّ إليه ورضي عنه. ويلاحظ أنّ الشّرط بإذا يجيء مع الرّحمة الّتي تيقّن وجودها وكثر. وهذا الفريق من النّاس إن تصبهم سيّئةٌ من مرض وفقرٍ وخمول ذكر وما إلى ذلك، بسبب ما قدّمت أيديهم من سيّئات، إذا هم ييأسون من رحمة الله تعالى. ويلاحظ أنّ الشّرط بإن يجيء مع السّيّئة الّتي يندر وجودها بالقياس إلى الرّحمة والحسنة. وهكذا يتّصل فضل الله تعالى على العباد ساعة اليسر وساعة العسر(١).

أعميت أبصار القوم وبصائرهم ولم يروا ويدركوا أنّ الله تعالى يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده ويوسعه اختباراً، ويَقْدِره على من يشاء من عباده ويضيّقه ابتلاءً، فليس بسط الرّزق دليل الكرامة على الله تعالى، وليس تضييق الزّرق دليل الهوان على الله تعالى. إنّ كلاً من الغنيّ والفقير محلّ ابتلاء، أيشكر الغنيّ أم يكفر. أيصبر الفقير أم يجزع. إنّ كلاً من الغنيّ الشّاكر والفقير الصّابر مأجور. والمعروف أنّ الإيمان شطران، شكرٌ وصبر. والصّبر يكون على البلاء والطّاعات وعن المعاصي. إنّ في كلّ ذلك لآياتٍ بيّناتٍ لقومٍ يؤمنون بالله تعالى إيماناً صادقاً وعميقا.

(١) انظر هنا ـ مثلاً الكشّاف ١/ ٥٦٨ في تفسيرالآية الكريمة ١٣١ من سورة الأعراف.

فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ
حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ
وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا
لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ
تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

تبيّن أنّ رب العزّة والجلال يختبر عباده بالمال وغيره ليعلم عزّ وجلّ علم ظهور أيشكرون أم يكفرون. ومن مظاهر اختبار الله تعالى للغنيّ أن جعل في مال الغنيّ حقّاً للفئات الثّمان الّتي تجوز عليها الزّكاة ولغير هذه الفئات، فإنّ في المال حقّاً غير الزّكاة. وتنصّ الآية الكريمة الأولى على ثلاث فئات. على ذى القربى المحتاج فإعطاؤه حقّه صدقةٌ وصلةُ رحم، وعلى المسكين الّذي أسكنه الفقر، وعلى ابن السّبيل وهو المسافر المنقطع وإن كان غنيّاً في بلاده فيلزم إيتاؤه ما يوصله بلده. وإذا كان ذو القربى يدخل في الفقراء الّذين يستحقّون الزّكاة فإنّ المسكين وابن السّبيل من الفئات الثّمان الّتي تستحقّ الزّكاة بصريح اللّفظ.

إنّ إيتاء هذه الفئات وسواها الحقّ الّذي جعله الله تعالى لها في مال الغنيّ خيرٌ حالاً ومآلاً للّذين يريدون وجه الله تعالي وثوابه بإعطاء أصحاب الحقوق حقوقهم، وأولئك هم الفائزون النّاجحون.

وإنّه بالنّظر إلى الفئات الثّلاث المذكورة يتبيّن أنّ ذا القربى أقرب الفئات الثّلاث للمعطِى لأنّه قريبه نسبا، وأنّ المسكين يكثر وجوده مع بعده نسباً عن المعطى. أمّا ابن السّبيل فإنّه أبعد الفئات الثّلاث نسباً وأقلّهم وجوداً في دنيا الواقع.

وهكذا تشمل الفئات الثّلاث أقرب الفئات للمعطِي ، والفئة الّتي تليها، وأبعدها، وكأنّ ذا القربى من جنس الفقراء، ثمّ يأتي المسكين، ثمّ يأتي ابن السّبيل. وإنّه بالنّظر إلى الفئات الثّمان في الآية الكريمة السّتّين من سورة التّوبة يتبيّن أن الفئات تبدأ بالفقراء فالمساكين وتنتهي بابن السّبيل. وبذلك يكون الأمر بإيتاء الفئات الثّلاث حقّها أمراً ضمنيّاً بإيتاء الفئات الأخري حقّها كذلك.

وتقرّر الآية الكريمة الأخرى أن ما نعطى من مالٍ بقصد الحصول على الرّبا وهو الزّيادة المحرّمة على رأس المال المدفوع للمقترض، وما نعطى من مالٍ في هيئة الهديّة بنيّة الحصول في المقابل على مالٍ أكثر أو نفع أكبر، لا يزكو ذلك المال المأخوذ بغير وجه حقّ ولا ينمو عند الله تعالى، بل يذهب الله تعالى ببركته ويمحقه. أمّا ما نعطى من مالٍ في هيئة الزّكاة أو الصّدقة الّتي نريد بها وجه الله تعالى، فإنّ الّذين يفعلون ذلك هم الّذين يضاعَفُ لهم الأجر وينالون على الحسنة الواحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ، إلى ما وراء ذلك فضلاً من الله تعالى ونعمة.

وهذه الآية الكريمة من سورة الرّوم المكّيّة أولى الآيات الكريمات الّتي تنهى عن الرّبا[1] والمعروف أن حديث القرآن الكريم عن الرّبا جاء في أربعة مواضع، وهذا الموضع أحدها وأوّلها.

---

(١) انظر هنا دراسات إسلاميّة في العلاقات الاجتماعيّة والدّولية للدّكتور محمد عبدالله دراز ص١٥٦ دار القلم بالكويت الطّبعة الثّانية ١٣٩٤هـ ١٩٧٩م.

اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن
شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

الله تعالى هو الّذي خلقكم يا بنى آدم من ذكر وأنثى، ثمّ رزقكم من الطّيّبات: ﴿وما من دابّةٍ في الأرض إلاّ على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها. كلٌّ في كتابٍ مبين﴾(١) ثمّ يميتكم حينما تنتهى أعماركم وتحين آجالكم: ﴿كلّ نفسٍ ذائقة الموت ثمّ إلينا ترجعون﴾(٢) ثم يحييكم يوم القيامة من بعد الموتة الأولى في الدّنيا، للحساب فالجزاء، الثّواب أو العقاب.

هل من أحدٍ من آلهتكم المزعومة الّتي أشركتموها مع الله تعالى في العبادة من يفعل شيئاً من ذلك من الخلق أو الرّزق أو الإماتة أو الإحياء؟ إنّها آلهةٌ عاجزةٌ مقهورة. فكيف تُعْبَدُ تلك الآلهة وكيف تُشْرَكُ مع الله تعالى القدير الفعّال لما يريد في العبادة.

تنزّه الله تعالى عن الشّريك والولد والصّاحبة، وتعالى علواً كبيراً عمّا يأتيه الظّالمون وعمّا يشركون به عزّ وجلّ في العبادة.

---

(١) سورة هود ٦

(٢) سورة العنكبوت ٥٧

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ
أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

ظهر الفساد في البر بالبوادي والمدن الدّاخليّة، وفي البحر بالمدن المطلّة على الأنهار والسّاحليّة، بسبب ما كسبت أيدى النّاس من ذنوب وأتت من آثام، ليذيقهم الله تعالى عقاب بعض الّذي عملوا، لعلّهم يرجعون إلى الله تعالى بالتّوبة عن المعاصى وعمل الطاعات، ويعفو الله تعالى عن الكثير من الذّنوب والآثام.

ولاشكّ أنّ الإشراك مع الله تعالى غيره في العبادة أكبر مظاهر الفساد في البرّ والبحر.

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول لمشركي قومه المصرّين على الكفر والعناد والاستكبار سيروا في أرض الله تعالى الواسعة، في رحلتي الشّتاء والصّيف وفي غيرهما، فانظروا بأبصاركم وبصائركم كيف كان عاقبة الّذين كانوا أمثالكم من السّابقين الكافرين المنحرفين عن الصّراط المستقيم.

لقد كان أكثرهم مشركين بالله تعالى غيره، وبذلك ارتكبوا الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى. لقد كان أولئك السّابقون أكثر من كفّار مكّة عدداً وعدّة، فأخذهم الله تعالى بذنوبهم، وما كان لهم من دون الله تعالى من وليٍّ ولا نصير. إنّ على كفّار مكّة أن يتّعظوا ويعودوا إلى الجادّة، وإلاّ فإنّ السّنّة ماضية والوعد لا يتخلّف.

وهذه المعاني سبق أن عبّرت عنها بتوسّع الآيتان الكريمتان التّاسعة والعاشرة من السّورة الكريمة. قال تعالى: ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الّذين من قبلهم كانوا أشدَّ منهم قوّةً وأثاروا الأرض وعَمَروها أكثر ممّا عمروها وجاءتهم رسلهم بالبيّنات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. ثمّ كان عاقبة الّذين أساءوا السّوءى أن كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن
قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن
كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾
لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

فأقم وجهك للدّين القيمّ : فوجّه وجهك يا محمّد نحو الوجه الّذي وجّهك إليه ربّك(١).

للدّين القيّم: لطاعة ربّك والملّة المستقيمة الّتي لا اعوجاج فيها عن الحق(٢).

من قبل أنّ يأتي يومٌ لا مردّ له من الله: من قبل مجيء يومٍ من أيّام الله لا مردّ له لمجيئه، لأنّ الله قد قضى بمجيئه، فهو لا محالة جاء(٣).

يصّدّعون: يتفرّقون(٤) بعد الحساب إلى الجنّة والنّار(٥) والصّدْع في الأصل الشّقّ في الأجسام الصُّلبة كالزّجاج والحديد ونحوهما(٦).

(١) تفسير الطّبري ٢١/ ٣٣.

(٢) تفسير الطّبري ٢١/ ٣٣.

(٣) تفسير الطّبري ٢١/ ٣٣..

(٤) تفسير الطّبري ٢١/ ٣٣.

(٥) الجلالين

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «صدع» ٢/ ٣٦٣

يمهدون : يوطّئون منازلهم في الجنّة(١).

فوجّه وجهك يا محمّد ويا أيّها الإنسان لدين الإسلام القويم والصّراط المستقيم، من قبل أن يأتي يوم القيامة الّذي لا مردّ له من الله تعالى القادر وحده على ردّه لو شاء، ولكن لم يرد ردّه بل أراد مجيئه. في ذلك اليوم ينقسم النّاس بعد الحساب فريقين، مؤمنين في الجنّة ، وكافرين في السّعير.

إنّ من كفر ولم يؤمن فعليه وبال كفره، ومأواه جهنّم وبئس المصير. وإنّ من آمن وعمل صالحاً فأولئك يعبّدون لأنفسهم الطريق إلى الجنة، ويمهّدون السّبيل للنّعيم المقيم.

إنّ المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات يحبّهم الله تعالى، ويثيبهم، ويزيدهم من فضله. وإنّ الكافرين لا يحبّهم الله تعالى، ويزيدهم عمىً إلى عماهم، ويعذّبهم في نار جهنّم.

وإزاء إصرار الكافرين على كفرهم وعنادهم يعود السّياق إلى الحديث عن بعض آيات الله تعالى.

---

(١) الجلالين

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

ومن آيات الله تعالى البيّنات الدّالآت على قدرته عزّ وجلّ وعلى وحدانيّته أن يرسل جلّ وعلا الرّياح بين يدي المطر مبشّرات لنا به كي نستعدّ للمطر وكي نتفادى ما يمكن تفاديه من الأذى، وكي يذيقنا عزّ وجلّ من رحمته المتمثّلة في الغيث الّذي يحيى الله تعالى به العباد والبلاد، وكي تَجْري السّفن في البحر، بأمره عزّ وجلّ للرّياح أنّ تسوق السّفن وتدفعها، ولنبتغي من فضل الله تعالى ونطلبَ الرّزق ونسعى وراء لقمة العيش، ولعلّنا نشكر لله تعالى نعمه العظيمة وآلاءه الجسيمة. وأهمّ مظاهر الشّكر لله تعالى إفراده عزّ وجلّ بالعبادة، وأهمّ مظاهر كفران النّعم الإشراك بالله تعالى وارتكاب هذا الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى.

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تشير إلى مجموعة من النّعم التى يتقلّب فيها المخاطَبون الّذين يعتمد كثيرٌ منهم على الرّعي والزّراعة في البرّ، وعلى الصّيد والتّجارة في البحر.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم
بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

بما أنّ المشركين أصرّوا على شركهم وعنادهم رغم كلّ هذه الآيات البيّنات الدّالاّت على قدرة الله تعالى المطلقة ووحدانيّته عزّ وجل، فإنّ السّياق يتحوّل إلى تسلية المصطفى ﷺ والتّسرية عنه. إنّ ربّ العزّة والجلال قد أرسل رسلاً من قبل محمّد صلّى الله وسلّم عليهم أجمعين وبعثهم إلى قومهم فجاءوهم بالآيات البيّنات كما جاء محمّد ﷺ قومه بالآيات البيّنات. ولمّا أصرّ السّابقون على كفرهم وإجرامهم انتقم الله تعالى منهم ومزّقهم كلّ ممزّق. وسوف يصادف كفّار مكّة المصير ذاته إن لم يتوبوا ويؤمنوا ويعملوا صالحاً، وكما خذل الله تعالى الكافرين وعذّبهم نصر المؤمنين بقيادة رسل الله تعالى إليهم.

وفي النّصّ على نصر الله تعالى المؤمنين أتباع المرسلين بشارةٌ للرّسول ﷺ وللمؤمنين بأنّ النّصر بإذن الله تعالى حليفهم في الوقت القريب وليس البعيد. ويلاحظ أنّ التّذييل: ﴿وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين﴾ في اكتفائه بذكر المؤمنين وحدهم بصريح اللّفظ ينبّه إلى أنّ الله تعالى متكفّلٌ بنصر المؤمنين إلى يوم الدّين في كلّ زمانٍ ومكان.

(٥)

(الله تعالى يحيى الأرض الميتة، ويبعث الموتى يوم القيامة، وينصر المؤمنين في الأولى والآخرة، ويخزى الكافرين)

الآيات (٤٨ ـ ٦٠)

ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ
فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ
﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾
وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾

فتثير : فتنشىء(١)

سحاباً: جمع سحابة(٢) والسّحاب الغيم فيه ماءٌ أو لم يكن. ولهذا يقال: سحابٌ جَهام. وأصل السَّحب الجرّ كسحب الذّيل. ومنه السّحاب، إمّا لجرّ الرّيح له أو لجرّه الماء أو لانجراره في مرّه(٣).

كيف يشاء : من قلّةٍ وكثرة(٤).

ويجعله كِسَفا: ويجعل السّحاب قطعاً متفرّقة(٥) والمفرد كِسْفة كقطعة وزناً ومعنى(٦).

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/ ٣٥

(٢) تفسير الطّبري ٢١/ ٣٥

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «سحب» ١/ ٢٩٧

(٤) الجلالين

(٥) تفسير الطّبري ٢١/ ٣٥.

(٦) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «كسف» ٢/ ٥٥٧

فترى الودق: يعنى المطر[1] وقيل ما يكون من خلال المطر كأنّه غبار وقد يعبّر به عن المطر[2].

يخرج من خلاله: يعنى من بين السّحاب[3] ووسطه[4] وخلال جمع خَلل. والخَلَل فُرْجةٌ بين الشّيئين كخلل الدّار والسّحاب والرّماد وغيرها[5].

يستبشرن: يفرحون[6].

من قبله: من قبل هذا الغيث[7] وتكرير من قبله على وجه التّوكيد[8].

لمبلسين: آيسين من إنزاله[9] مكتئبين حزنين باحتباسه عنهم[10] والإبلاس الحُزْن المعترض من شدّة اليأس. ولمّا كان المُبْلِسُ كثيراً ما يلزم السّكوت وينسى ما يعنيه قيل: أبلس فلانٌ إذا سكت وإذا انقطعت حجّته[11] واللّام هي الفارقة[12].

---

(١) تفسير الطّبرى ٢١/ ٣٥

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «ودق» ٢/ ٦٧١

(٣) تفسير الطّبري ٢١/ ٣٥.

(٤) الجلالين

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «خل» ١/ ٢٠٤

(٦) تفسير الطّبرى ٢١/ ٣٥

(٧) تفسير الطّبرى ٢١/ ٣٥

(٨) تفسير الطّبرى ٢١/ ٣٥ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ١٨١

(٩) الجلالين

(١٠) تفسير الطّبرى ٢١/ ٣٥

(١١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «بلس» ١/ ٧٦

(١٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ١٨١

فانظر إلى آثار رحمة الله: فانظر يامحمّد إلى أثر الغيث الّذي أصاب الله به من أصاب من عباده(١).

ولئن أرسلنا ريحاً: ولئن أرسلنا ريحاً مفسدةً ما أنبته الغيث الّذي أنزلناه من السّماء(٢).

فرأوه مصفرّا: فرأوا الزّرع مصفراً قد فسد بتلك الرّيح الّتي أرسلناها فصار من بعد خضرته مصفراً(٣).

لظلّوا من بعده: لظلّوا من بعد استبشارهم وفرحتهم به(٤)

يكفرون: بربّهم(٥).

الله تعالى وحده لا شريك له هو الّذي يرسل الرّياح المختلفة فتثير سحاباً وتهيجه، تنشئه وتوجده بإذن الله تعالى. فيبسط عزّ وجلّ السّحاب في السّماء كيف يشاء حجماً وكثافة، أو يجعله قطعاً متفرّقة مختلفة الأحجام، فترى أيّها الإنسان المطر يخرج بإذن الله تعالى من بين السّحاب وأعماقه. والمعروف أنّ السّحابة الممطرة ثمرة مجموعةٍ من الرّياح، والمعروف أنّ لفظة الرّياح في صيغة الجمع تجيء مع الرّحمة، وأنّ لفظة الرّيح في صيغة المفرد تجيء مع العذاب، إلاّ إذا كانت طبيعة الرّحمة تقتضي الرّيح المفردة، وهنا تأتي القرينة المرشّحة للرّحمة، وذلك على غرار وصف الرّيح بأنّها طيّبة في الآية الكريمة الثّانية والعشرين من سورة يونس. إنّ تسيير السّفن في البحر يحتاج إلى الرّيح الواحدة الملتئمة، ولهذا وصفت تلك الرّيح بأنّها طيّبة.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢١/ ٣٥

(٢) تفسير الطّبري ٢١/ ٣٦.

(٣)تفسير الطّبري ٢١/ ٣٦

(٤) تفسير الطّبري ٢١/ ٣٦

(٥) تفسير الطّبري ٢١/ ٣٦.

فإذا أصاب الله تعالى بذلك المطر من يشاء من عباده إذا هم يفرحون ويستبشرون. وإنّ أولئك العباد كانوا من قبل أن ينزّل عليهم ذلك المطر ومن قبل هطوله عليهم لآيسين من إنزاله قانطين، حزينين مكتئبين، ساكتين من شدّة اليأس، واجمين من شدّة القُنوط.

فانظر أيّها الإنسان إلى آثار رحمة الله تعالى بنزول الغيث وهطول المطر كيف يحيى الله تعالى الأرض بالماء فتنبت من كلّ زوجٍ بهيجٍ، بعد موتها بالجفاف والجدب. إنّ ذلك المحيي للأرض الميتة هو المحيي للموتى يوم القيامة، وهو عزّ وجلّ على كلّ شيءٍ قدير.

ولئن أرسل الله تعالى ريحاً مؤذية للنّبات فرأى النّاس زرعهم قد اصفرّ بعد خُضرة، ومات بعد نَضرة، لظلّوا من بعد اصفرار الزّرع وموته يكفرون نعم الله تعالى العظيمة عليهم بإنزال المطر، وإحياء الأرض الميتة، وإنباتها من كلّ زوجٍ بهيج.

ويلاحظ أنّ الآيات الكريمات تفيض في الحديث عن ملابسات إحياء الله تعالى الأرض الميتة دليلاً على قدرة الله تعالى المطلقة، ومن مظاهر ذلك إحياء الله تعالى الموتى يوم القيامة. وهذه الإفاضة في الحديث عن إحياء الأرض الميتة وإحياء الموتى من أكبر الأدلّة على ما أومأنا إليه بأنّ إعادة الله تعالى الحياة إلى الأموات هو محور سورة الرّوم المكّيّة الكريمة. وممّا يعمّق هذا المعنى التّوكيد الفريد في بابه في القول: ﴿وإن كانوا من قبل أنّ يُنَزَّل عليهم من قبله لمبلسين﴾.

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

وما أنت بهادى العمي عن ضلالتهم: وما أنت يا محمّد بمسدّد من أعماه الله عن الاستقامة ومحجّة الحقّ فلم يوفّقه لإصابة الرّشد فصارفه عن ضلالته الّتي هو عليها وركوبه الجائر من الطّرق إلى سبيل الرّشاد(١).

إن تسمع إلاّ من يؤمن بآياتنا: ما تسمع السّماع الّذي ينتفع به سامعه فيعقله إلاّ من يؤمن بآياتنا(٢).

إنّ حديث الآيات الكريمات السّابقات المستفيض عن الموت والحياة في حقّ الأرض والبشر رشّح للحديث عن نوعٍ جديدٍ من الأموات والأحياء. أمّا الأموات فهم الكافرون. وأما الأحياء فهم المؤمنون.

فإنّك يا محمّد ويا أيّها الدّاعى إلى الله تعالى لا تُسْمِع الموتى سكّان القبور، ولا تُسمع الصُّمَّ الدّعاء وإنّ كنت قريباً منهم، فكيف بأولئك الصُّمّ إذا انصرفوا عنك، وفرّوا مدبرين منك لا يَلْوون على أحد. وما أنت يا محمّد بهادى العمي وصارفهم عن ضلالتهم. ومن البيّن أنّ الحديث هنا عن الكافر الّذي نزّله السّياق منزلة الميّت على الحقيقة والأصمّ والأعمى.

إنّ الميّت لا أمل في أن يسمع دعاءك ولا نداءك، وكذلك الكافر المصرّ على عناده واستكباره لا أمل في أن يسمع دعاءك له إلى دين الإسلام وإلى توحيد الله

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/ ٣٦.

(٢) تفسير الطّبري ٢١/ ٣٦.

تعالى، والمراد هنا بالسّماع السّماع الواعي الّذي يستجيب معه صاحبه لدعوة الحقّ.

إنّ الكافر الّذي يسمع في العادة كلّ قول حينما لا يستجيب لمن يدعوه إلى دين الحقّ يكون بمثابة الميّت فاقد الرّوح ساكن القبر. وهكذا يكون الكفر موتاً، ويكون الإيمان حياة. جاء في سورة الأنفال(١) قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه وأنّه إليه تُحْشَرون﴾ وجاء إيماءً إلى أنّ الكافر ميّتٌ بكفره، وأنّ المؤمن حيٌّ بإيمانه، قولُ الحقّ جلّ وعلا في سورة الأنعام(٢): ﴿أَوَمن كان مَيْتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في النّاس كمن مثله في الظّلمات ليس بخارجٍ منها. كذلك زُيّن للكافرين ما كانوا يعملون﴾ وجاء في سورة الأنعام(٣) قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿إنّما يستجيب الّذين يسمعون. والموتى يبعثهم الله ثم إليه يُرْجَعون﴾ إنّ الأموات على الحقيقة يستجيبون يوم القيامة لدعوة الرّحمن لهم إلى الحياة، أمّا الكافرون فإنّهم لا يستجيبون في الحياة الدّنيا لأيّ دعاء إلى الخير، لهذا فإنّ الكافرين أرسخ في صفة الموت من الموتى على الحقيقة، الّذين يستجيبون بحمد الله تعالى حينما يدعوهم عزّ وجلّ يوم القيامة، ويلبّون النّداء، ويخرجون من القبور أحياء.

عن قتادة، قوله : ﴿فإنّك لا تسمع الموتى﴾ هذا مَثَلٌ ضربه الله للكافر. فكما لا يسمع الميّت الدّعاء كذلك لا يسمع الكافر(٤).

وكما لا يسمع الكافرون الّذين هم في حكم الموتى على الحقيقة الدّعاء إلى الخير، كذلك لايسمع الكافرون الّذين هم في حكم من ولدوا صمّاً فهم لا يسمعون الدّعاء أساساً. إنّ الأصمّ لا يسمع الدّعاء أساساً، أمّا الكافر الّذي يسمع

---

(١) الآية ٢٤

(٢) الآية ١٢٢

(٣) الآية ٣٦

(٤) تفسير الطّبرى ٢١/ ٣٦

بأذنه الدّعاء ، فبما أنّه لعناده واستكباره، لا يحقّق الهدف من النّداء وهو الاستجابة، لذا نُزِّل منزلة الأصمّ الّذي لا يسمع أساساً، خاصةً وأنّ هؤلاء الكافرين يولّون مدبرين عن الّذي يدعوهم إلى الله تعالى معرضين مهرولين. وكأنّ انصراف قلوب الكافرين عن سماع دعوة الحقّ، قد أكّده انصراف أجسادهم وابتعادهم عن الدّاعي حسّاً، إثر ابتعادهم عنه معنى. وكأنّ الأذن قد تعطّلت عن وظيفتها القريبة وهي السّماع، تأكيداً لتعطّل وظيفتها المهمّة البعيدة، وهي الوعي والاستجابة لنداء الحقّ.

ويلاحظ أنّ حاسّة السّمع قد تعطّلت في حقّ الميّت وفي حقّ الأصمّ: ﴿فإنّك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصّمّ الدّعاء اذا ولّوا مدبرين﴾ ويتوّج الحديث عن حاسّة السّمع بالقول في الآية الكريمة الأخرى: ﴿إن تُسْمِعُ ألاّ من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ وكلّ هذه المعاني أدلّةٌ مؤكّدة لما يتبيّن من تقديم القرآن الكريم غالباً، حاسّة السّمع لأهميّتها، على حاسّة البصر.

أما ما يخصّ حاسّة البصر فإنّه قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وما أنت بهادى العمي عن ضلالتهم﴾ والمعنى: وما أنت يا محمّد بهادى عمي البصائر عن ضلالتهم وسفاهتهم. وكما كان لحاسّة السّمع مستويان من العمل قريب، وهو السّماع المجرّد، ويتعلّق بهذا المستوى القريب الصّمم الحسّيّ، وبعيد، وهو السّماع الواعي، كان لحاسّة البصر مستويان من العمل، قريب، وهو الإبصار بالعين المجرّدة، ويتعلّق بهذا المستوى القريب العمى الحسّيّ، وبعيد، وهو الإبصار بعين البصيرة، ونور القلب، ورجاحة الفكر، ونضج العقل.

ولمّا كان الموتى في القول: ﴿فإنّك لا تسمع الموتى﴾ يراد بهم الموتى معنًى بكفرهم وليس حسًّا بخروج أرواحهم من أجسادهم، فقد رشّح هذا المعنى للصّمّ أنّ يراد بهم الصّمّ معنىً لاحسًّا، وقد رشّح هذا وذاك للعمي أنّ يراد بهم العمي معنًى لاحسًّا. وهذه المعاني البعيدة، والمرامي القصيّة للموتى والصّمّ والعمي تذكّرنا بمثل قول الحقّ جلّ وعلا في

سـورة الأعراف[1]: ﴿ ولقـد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجنّ والإنـس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بهـا ولهم آذانٌ لا يسمعون بها. أولئك كالأنعام بل هم أضلّ. أولئك هم الغافلون﴾.

إنّ المصطـفى ﷺ إنّما يُسْمِـعُ سماع قبول من يـؤمن بآيات الله تعالـى إيماناً راسخاً فهم مسلمون لله تعالى ربّ العالمين، موحّدون، مخلصون العبادة لله تعالى وحده لا شريك له. إنّ هؤلاء هـم الأحياء على الحقيقة السّامـعون المبصرون. أمّا الكافرون فإنّ مَثَلَ الواحد منهم مَثَلُ المـيّت ساكن القبر، ومَثَلُ من وُلِد أصمَّ ووُلِدَ أعمى. والعياذ بالله.

(١) الآية ١٧٩.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم
مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ
قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

الله تعالى هو الّذي خلقكم أيّها النّاس من ضعف، وهو ضعف الطّفولة والنّشأة(١) وممّا يومىء إلى مرحلة الضّعف هذه قول الحقّ جلّ وعلا في سورة النّحل(٢) : ﴿والله أخرجكم من بطون أمّهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السّمع والأبصار والأفئدة لعلّكم تشكرون﴾ ثمّ جعل عزّ وجلّ من بعد ضعف الطّفولة والنّشأة قوّة الشّباب وبلوغ الأشدّ. ثمّ جعل عزّ وجلّ من بعد قوّة الشّباب والاكتمال ضعف الاكتهال(٣) والهَرَم(٤) وشيبته.

يخلق الله تعالى ما يشاء خلقه، ويفعل ما يريد فعله، لارادّ لقضائه عزّ وجلّ، ولا معقّب لحكمه، ولايُسْأل عمّا يفعل، وهو جلّ وعلاالّذي أحاط بكلّ شيءٍ علماً وقدرة.

وهكذا يبدأ الإنسان ضعيفاً حينما يولد، ثمّ يعود ضعيفاً قد اشتعل رأسه شيبا، وقد يردّ بإرادة الله تعالى إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علمٍ شيئا. وبين الضعفين قوّة.

وقبل ذكر الضّعف والشّيبة في الآية الكريمة جاءت لفظة: «ضعف» مرّتين اثنتين، وجاءت لفظة «قوّة» مرّتين اثنتين. قال تعالى : ﴿الله الّذي خلقكم من

---

(١) انظر هنا ـ مثلاً ـ تفسير ابن كثير ٦/ ٣٣٠ والكشّاف ٢/ ٥١٢ والبحر المحيط ٧/ ١٨٠

(٢) الآية ٧٨

(٣) الكهل من جاوز الثّلاثين إلى الخمسين. المعجم الوسيط : «كهل»

(٤) يقال : هَرِم الرّجل هَرَماً بلغ أقصى الكبر. المعجم الوسيط «هرم»

ضعفٍ ثم جعل من بعد ضعفٍ قوّةً ثمّ جعل من بعد قوّة. . . .﴾

ولمّا كانت القوّة في الموضعين بمعنًى واحد، وهو قوّة الشّباب والاكتمال وبلوغ الأشدّ، لذا ذهبنا إلي أنّ الضّعف في الموضعين بمعنًى واحد هو ضعف الطّفولة والنّشأة.

ولا مانع وراء ذلك من أنّ يكون الضّعف الأوّل بمعنى ضعف النّطفة والماء المهين، ويكون الضّعف الثّاني بمعنى ضعف الطّفولة والنّشأة. والله تعالى أعلم.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

يوم القيامة يكثر كلام المجرمين وخصامهم وادّعاؤهم. فهم يوم القيامة يوم ينفخ إسرافيل عليه السّلام في الصّور ويحشرهم جلّ وعلا زرق العيون سود الوجوه من العطش والنَّصَب يُسِرُّ بعض المجرمين لبعض ويقولون لهول الموقف وشدّة العذاب: مالبثتم في الحياة الدّنيا إلاّ عشراً من اللّيالي بأيّامها. بل إنّ أرجحهم عقلاً وأكثرهم فهماً يقول: مالبثتم في الحياة الدّنيا إلاّ يوماً واحداً. وكأنّ القوم يريدون بالتّحوّل من القصير من الزّمن إلى الأقصر منه التّعبير عن هول الموقف من ناحية، وقصر لبثهم في الحياة الدّنيا إذ لم يكن الوقت - حسب زعمهم - كافياً لأن يفهموا الدّعوة ويستوعبوا الرّسالة. جاء في هذه المعاني قول الحقّ جلّ وعلافي سورة طه(١) ﴿يوم يُنْفَخ في الصّور ونحشر المجرمين يومئذٍ زرقا. يتخافتون بينهم إن لبثتم إلاّ عشرا. نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقةً إن لبثتم إلاّ يوما﴾.

وكأنّ الآية الكريمة من سورة الرُّوم تشير إلى ادّعاءٍ أكبر للقوم بأنّهم لم يلبثوا في الحياة الدّنيا غير ساعة واحدة - أو في القبور - ويقسمون على ذلك. وهكذا حينما تقوم السّاعة في السّاعة المحدّدة لها فلا تقديم ولا تأخير، يقسم أولئك المجرمون أنهم مالبثوا في الحياة الدّنيا أو في القبور غير ساعةٍ واحدة.

إنّهم إن أرادوا الحياة الدّنيا فقد أخطأوا التدّبير. وإن أرادوا القبور فقد أخطأوا التّقدير.

وفي مثل هذه الطّريقة التي يخطيء المجرمون بشأنها التّدبير أو التّقدير كانوا في الحياة الدّنيا يُصْرَفون عن الإيمان بالبعث الحقّ، والوعد الصّدق، وبذلك أخطأوا التّدبير.

---

(١) الآيات ١٠٢-١٠٤

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ
لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ
وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

وقال الّذين أوتوا العلم والإيمان : فيردّ عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة، كما أقاموا عليهم حجّة الله في الدّنيا(١).

لقد لبثتم في كتاب الله : لقد لبثتم فيما كتب الله ممّا سبق في علمه أنكم تلبثونه(٢).

فهذا يوم البعث: فهذا يوم يُبْعث النّاس من قبورهم(٣)

ولكنّكم كنتم لا تعلمون: ولكنّكم كنتم لا تعلمون في الدّنيا أنّه يكون، وأنكم مبعوثون من بعد الموت فلذلك كنتم تكذّبون(٤).

معذرتهم: هو قولهم ماعلمنا أنّه يكون ولا أنّا نبعث(٥).

ولا هم يستعتبون: الاستعتاب طلبك إلى المسيء العُتْبى. والعُتْبى الرّجوع عن الإساءة إلى مايرضى العاتب. والعُتْبى: الرّضا. والعُتْبى رجوع المعتوب عليه إلى مايُرْضى العاتب. وعاتبه معاتبةً وعتاباً: كلّ ذلك لامه(٦)

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/٣٣١

(٢) تفسير الطبري ٢١/٣٧

(٣) تفسيرالطبري ٢١/٣٧

(٤) تفسير الطبري ٢١/٣٧

(٥) تفسير الطبري ٢١/٣٧

(٦) أنظر لسان العرب : «عتب»

والمعنى: لايُطْلب منهم العُتْبَى أي الرّجوع إلى مايرضي الله(١).

وقال المؤمنون الّذين آتاهم الله تعالى من فضله العلم الكسبّي والوهبيّ، وحبّب إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم، رداً على الزّاعمين أنّهم لم يعطوا في الدّنيا الفرصة الكافية كي يتفكّروا في البعث جيّداً، لقد لبثتم فيما كتب الله تعالى في سابق علمه أنكم تلبثونه إلى يوم البعث، وهأنتم أولاء قضيتم الحياة الدّنيا، وسكنتم القبور ماشاء الله تعالى لكم أن تسكنوا، إلى أن بُعثْتم، فهذا يوم البعث. ولكنّكم كنتم في الحياة الدّنيا لا تعلمون أنّ يوم البعث كائن، ولهذا كنتم تكذّبون، وتنكرون البعث والجزاء.

ففي يوم البعث الكائن لا محالة، لا ينفع الذّين أشركوا معذرتهم بأنّهم ماعلموا بأنّ يوم البعث كائنٌ وأنّهم مبعوثون، ولاهُمْ يُطْلَبُ منهم الرّجوع إلى عمل مايرضى الله تعالى، لأنّ الحياة الآخرة هي دار الجزاء ولا عمل، كما أن الدّار الأولى هي دار العمل ولاجزاء. إنّ مبدأ الرّجوع إلى الحياة الدّنيا مرفوضٌ أساسا.

وهكذا يتبيّن أنّ الإنسان لا ينفعه يوم القيامة إلاّ عمله الصّالح الّذي ابتغى به وجه الله تعالى وتفضّل عزّ وجلّ فقبله.

---

(١) الجلالين

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا
لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ
لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

ولقد ضربنا : ولقد جعلنا(١) ومثّلنا(٢).

للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل: احتجاجاً عليهم وتنبيهاً لهم على وحدانيّة الله(٣).

ولئن جئتهم بآية: ولئن جئت يامحمّد هؤلاء القوم بدلالةٍ على صدق ماتقول(٤) مثل العصا واليد لموسى(٥).

إلاّ مبطلون: أصحاب أباطيل(٦) والباطل نقيض الحقّ، وهو مالا ثبات له عند الفحص عنه(٧) والمراد بالمبطلين هنا الذّين يقولون شيئاً لا حقيقة له(٨)

كذلك يطبع الله على قلوب الذّين لايعلمون: كذلك يختم الله على قلوب

---

(١) الجلالين

(٢) تفسير الطّبري ٢١/٣٧

(٣) تفسير الطّبري ٢١/٣٧

(٤) تفسير الطّبري ٢١/٣٧

(٥) الجلالين

(٦) الجلالين

(٧) مفردات الرّاغب الأصفاني : «بطل» ١/٦٤

(٨) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني في «بطل» ١/٦٥

الذّين لا يعلمون حقيقة ماتأتيهم به يا محمّد من عند الله من هذه العبر والعظات والآيات البيّنات(١)

ولا يستخفنّك الذّين لا يوقنون: ولا يستخفنّ حلمك ورأيك هؤلاء المشركون بالله الذّين لايوقنون بالمعاد ولا يصدّقون بالبعث بعد الممات، فيثبّطوك عن أمر الله والنّفوذ لما كلّفك من تبليغهم رسالته(٢)

ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن الكريم من كلّ مَثَلٍ لعلّهم يتّعظون ويتذكّرون. والمعروف أنّ المَثَل يكون بمعنى الصّفة وبمعنى الآية وبمعنى النّبأ العظيم والخبر السّائر والقصّة العجيبة. والهدف من ضرب القرآن الكريم للنّاس الأمثال أن يعقلوها ويأخذوا العبرة منها والعظة. وقد ضرب الله تعالى للنّاس مثلاً من أنفسهم في الآية الكريمة الثّامنة والعشرين كي يتبيّنوا آيات الله تعالى الّتي يفصّلها، ويعقلوا الأمثال الّتي يضربها. ويلاحظ أنّ القرآن الكريم يجيء ذكره بصريح اللّفظ في نهاية سورة الرّوم المكيّة الكريمة الّتي تبدأ بالحروف المقطعة.

وهكذا تتأكّد الحقيقة القائلة بأنّ كلّ سور القرآن الكريم الّتي تبدأ بالحروف المقطّعة يجيء فيها الانتصار للقرآن الكريم على الفور أو على التّراخي. ويلاحظ كذلك أنّ مَثَل المشرك مثل الميّت والأصمّ والأعمى.

والمعروف أن المشركين لم يستفيدوا من ضرب الأمثال في القرآن الكريم، بل لم يستفيدوا مطلقاً من القرآن الكريم. وتأكيداً لإعراض المشركين عن القرآن الكريم وعنادهم يخاطب السّياق المصطفى ﷺ في أسلوب التّوكيد ويقول له: ولئن جئت يامحمّد المشركين بآيةٍ محسوسة مثل العصا واليد لموسى والنّاقة لصالح لأصرّ الكافرون على عنادهم واستكبروا ولقالوا للمؤمنين ما أنتم إلاّ أصحاب أباطيل، وأقوالٍ لا معاني تحتها، وأشياء لا فوائد من ورائها. هكذا يطبع الله تعالى على قلوبٍ الذّين لا يعلمون، فلا ضلالة ولا سفاهة تغادرها، ولا نور هداية وبصيرة يتسلل إليها.

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/٣٧

(٢) تفسير الطّبري ٢١/٣٧

وتختم السّورة الكريمة بأمر المصطفى ﷺ أن يصبر، فإنّ وعد الله تعالى بنصره عليه الصّلاة والسّلام ونصر المؤمنين حقّ. وهكذا يتناغم آخر السّورة مع أوّلها، ففي كلّ منهما الوعد بنصر الله تعالى حبيبه ﷺ والمؤمنين، كما يُنْهي عليه الصّلاة والسّلام أن يستخفّ أولئك المشركون الذّين لا يوقنون بالبعث وبالحياة بعد الموت حِلْمَه عليه الصّلاة والسلام ورأيه، أو أن يثبّطه المشركون عن مواصلة الدّعوة إلى الله تعالى، وتبليغ الرّسالة، وتأدية الأمانة.

وقد صدق الله تعالى وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا إله غيره، ولا معبود بحقٍ سواه.

تعقيب

سورة الرّوم المكّيّة من آخر مانزل على المصطفى ﷺ قبيل الهجرة الى المدينة المنورة(١) ومن أهم أهداف المكّي من القرآن ترسيخ أسس العقيدة من توحيد لله تعالى وإيمان بكتابه وتصديقٍ لرسوله وليوم القيامة وما إلى ذلك. وإنّ المحور الّذي تدور حوله سور الرّوم الكريمة، إقناع المشركين بالبعث بعد الموت وقدرة الله تعالى المطلقة على إعادة الحياة إلى الخلائق يوم القيامة. إنّ قضيّة البعث يوم القيامة أكبر موضوعات السّورة الكريمة، إنّا وقد ألحّت السّورة الكريمة مراراً على هذه القضيّة، وسلكت في سبيل ذلك العديد من السّبل، واتّخذت العديد من الوسائل، بحيث إنّا نستطيع أن نقول إنّ إقناع المشركين بإعادة الحياة إليهم يوم القيامة هو الهدف الّذي تسعى إلى تقريره كلّ قضايا السّورة الكريمة. ونودّ أن نستعرض قضايا السّورة الكريمة الّتي تسعى إلى تقرير حقيقة البعث بعد الموت في هيئة نقاط.

١ ـ تبدأ السّورة الكريمة بالحروف المقطّعة: ﴿الم﴾ إيماءً إلى إعجاز القرآن الكريم المؤلّف ألفاظه من الحروف المؤلّف منها الألفاظ الّتي تجرى على ألسنة العرب. وجرياً على ماتتّسم به السّور الّتي تبدأ بالحروف المقطّعة من انتصارٍ للقرآن الكريم، يجيء في سورة الرّوم الانتصار للقرآن الكريم في نهايتها، كما يجيء في هذه النّهاية تسلية المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وتثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام. ومعروفٌ أنّ القرآن الكريم هو السّلاح الأكبر للمصطفى صلّي الله عليه وسلّم وللمؤمنين. جاء خطاباً للمصطفى صلّي الله عليه وسلّم في الآيات الكريمات (٥٨-٦٠) قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ولقد ضربنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مَثَل. ولئن جئتهم بآيةٍ ليقولنّ الّذين كفروا إن أنتم إلاّ مبطلون. كذلك يطبع الله على قلوب الّذين لا يعلمون. فاصبر إنّ وعد الله حقٌّ ولا يستخفنّك الّذين لا يوقنون﴾.

---

(١) الإتقان ١/٤٣

٢ ـ في مجال الإنباء بالغيب تخبر السّورة الكريمة بأنّ الرّوم أهل الكتاب سوف ينتصرون في بضع سنين، بين الثّلاث إلى التّسع أو العشر، على الفرس المجوس الّذين انتصروا عليهم أوّلاً. وكذلك تخبر السّورة الكريمة بأنّ المؤمنين سوف يفرحون يوم ينصر الله تعالى الرّوم أهل الكتاب على الفرس المجوس، وسوف يفرحون كذلك، بنصر الله تعالى لهم لاحقاً على كلٍّ من الفرس والرّوم. وفي مجال تسلية النّبي صلّي الله عليه وسلّم يجيء الوعد بالنّصر في قول الحق جلّ وعلا في الآية الكريمة السّابعة والأربعين: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً الى قومهم فجاءوهم بالبيّنات فانتقمنا من الّذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ وفي قول الحق جلّ وعلا في الآية الكريمة السّتّين: ﴿فاصبر إنّ وعد الله حقٌّ ولا يستخفنّك الّذين لا يوقنون﴾.

٣ ـ كافرو مكّة ومن شاكلهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا من أكلٍ وشربٍ وملبسٍ ومسكنٍ وعملٍ وما إلى ذلك وهم عن الآخرة هم غافلون. وهم لا يتفكّرون في أنفسهم وفي خلق الله تعالى لهم ولهذا الكون العظيم، ولا يعتبرون بالأقوام الّذين هم أقوى منهم فأهلكهم الله تعالى بذنوبهم.

٤ ـ ما أكثر الآيات الدّالآت على قدرة الله تعالى المطلقة. وقد بدأت مجموعةٌ من الآيات الكريمات بقول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ومن آياته. . . .﴾ كما بدأت مجموعةٌ أخرى من الآيات الكريمات بالقول: ﴿الله الّذي . . . .﴾.

٥ ـ محور السّورة الكريمة وموضوعها الأكبر البعث بعد الموت وإحياء الله تعالى الموتى يوم القيامة. إنّ كثيراً من آيات السّورة الكريمة يشير إلى ملابسات يوم القيامة وإحياء الله تعالى الموتى. جاء في الآيتين الكريمتين السّابعة والثّامنة عن المشركين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا وهم عن الآخرة

هم غافلون. أولم يتفكّروا في أنفسهم. ماخلق الله السّماوات والأرضَ وما بينهما إلاّ بالحقّ وأجلٍ مسمّى. وإنّ كثيراً من النّاس بلقاء ربّهم لكافرون﴾ وقولُ الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة العاشرة: ﴿ثمّ كان عاقبةَ الّذين أساءوا السّوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾ وجاء بشأن إيجاد الله تعالى الخلق ابتداءً وعودةً وبعض ملابسات يوم القيامة قول الحقّ جل وعلافي الآيات الكريمات من الحادية عشرة إلى السّادسةعشرة ﴿الله يبدأ الخلق ثمّ يعيده ثمّ إليه ترجعون. ويوم تقوم السّاعة يُبْلِس المجرمون. ولم يكن لهم من شركائهم شفعاءُ وكانوا بشركائهم كافرين. ويوم تقوم السّاعة يومئذٍ يتفرّقون. فأمّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات فهم في روضةٍ يُحْبرون. وأمّا الّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون﴾. وجاء في الآية الكريمة التّاسعة عشرة قول الحق جلّ وعلا: ﴿يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾.

وهذه الآيات الكريمات من الرّابعة والعشرين إلى السّابعة والعشرين تذكر بعض الأدلّة على يوم القيامة وملابساته. قال تعالى: ﴿ومِنْ آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزّل من السّماء ماءً فيحيى به الأرض بعد موتها. إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون. ومن آياته أن تقوم السّماء والأرض بأمره ثمّ إذا دعاكم دعوةً من الأرض إذا أنتم تخرجون. وله من في السّماوات والأرض كلٌّ له قانتون. وهو الّذي يبدأ الخلق ثمّ يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السّماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾. وجاء في الآية الكريمة الأربعين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿الله الّذي خلقكم ثمّ رزقكم ثمّ يميتكم ثم يحييكم. هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء. سبحانه وتعالى عمّا يشركون﴾.

وجاء في ثواب المؤمنين يوم القيامة وعقاب الكافرين قول الحقّ جلّ وعلا في الآيات الكريمات من الثّالثة والأربعين إلى الخامسة والأربعين: ﴿فأقم وجهك للدّين القيّم من قبل أن يأتي يومٌ لا مردّ له من الله يومئذٍ يصّدّعون. من كفر فعليه كفره

ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون. ليجزي الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات من فضله. إنّه لا يحبّ الكافرين﴾.

وجاء في إحياء الله تعالى الأرض الميتة، والموتى يوم القيامة، والكافرين الّذين مَثَلُ الواحد منهم مَثَل الميّت ساكن القبر، والأصمّ، والأعمى، وفي المراحل الّتي يمرّ بها الإنسان حتّى يفضي به الضّعف المقترن به الشّيب إلى الموت، وعن قيام السّاعة وإنكار الكافرين للبعث وعذابهم يوم القيامة، جاء في كلّ ذلك الآيات الكريمات من الثامنة والأربعين إلى السّابعة والخمسين، أي عشر آيات كريمات متتاليات. وهذه الآيات العشر الكريمات من أبلغ الأدلّة على أنّ محور السّورة الكريمة البعث وإحياء الله تعالى الموتى.

٦ ـ جاء في الآية الكريمة الثّامنة والخمسين القول: ﴿ولقد ضربنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل﴾ وقد جاء في الآية الكريمة الثّامنة والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ضَرَب لكم مثلاً من أنفسكم. هل لكم ممّا ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواءٌ تخافونهم كخيفتكم أنفسكم. كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون﴾ وقد وُطّيء لضرب المثل بقول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة السّابعة والعشرين: ﴿وهو الّذي يبدأ الخلق ثمّ يعيده وهو أهون عليه. وله المثل الأعلى في السّماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ كما أنّ مثل الكافر مثل الميّت الّذي لا يسمع، والأصمّ، والأعمى. وإلى ذلك أشارت الآيتان الكريمتان الثّانية والخمسون والثالثة والخمسون.

٧ ـ أشارت سورة الرّوم الكريمة إلى الفطرة الّتي فطر الله النّاس عليها وإلى مقوّماتها، وذلك في الآيات الكريمات من الثلاثين إلى الثّانية والثلاثين. قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله. ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون. منيبين إليه واتّقوه وأقيموا

الصّلاة ولا تكونوا من المشركين. من الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً. كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون﴾.

٨ كما تحدّثت السّورة الكريمة عن نعوت المؤمنين وأهمّها توحيد الله تعالى، تحدّثت عن عيوب المشركين وأهمّها الشّرك. وكما كان بعض النّاس وفيهم المشركون أغنياء فهم محلّ اختبار بالغنى، فليس الغنى دليل كرامتهم على الله تعالى، كان المؤمنون محلّ ابتلاءٍ من الله تعالى بالفقر، فليس الفقر دليل هوانهم على الله تعالى.

ومن الأدلّة على أنّ الغِنى اختبارٌ من الله تعالى تورّط بعض الأغنياء في الرِّبا. وقد جاء في الآية الكريمة التّاسعة والثّلاثين من سورة الرّوم المكّيّة الكريمة الموضع الأوّل في القرآن الكريم من المواضع الأربعة الّتي كان فيها الحديث عن الرّبا. قال تعالى: ﴿وما آتيتم من ربا ليربو في أموال النّاس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاةٍ تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾. وقد نزلت قبل الهجرة سورة الرّوم الّتي تتحدث عن الرّبا، ثمّ نزلت سورة العنكبوت، ثمّ نزلت أخيراً قبل الهجرة سورة المطفّفين(١) إنّ الحديث عن الرّبا وعن التطّفيف في الكيل والوزن، دليلٌ على الأمراض الكثيرة الّتي كانت تفتك بالمكّيّين المصرّين على الكفر والعناد والاستهزاء. وهي أمراضٌ لم تفارقهم إلا بدخولهم في دين الاسلام لاحقا.

٩ ـ حينما تتحدّث سورة الرّوم الكريمة كثيراً عن ملابسات يوم القيامة يكون من أهمّ أهدافها حمل النّاس على الإيمان بالبعث والحساب والجزاء وعمل الصّالحات واجتناب السّيّئات. لقد حثّت السّورة الكريمة صراحةً أو ضمناً على عمل الصّالحات، وعلى اجتناب السّيّئات، وعلى تدبّر آيات الله تعالى والشّكر له جلّ وعلا عليها.

---

(١) الإتقان ١/٤٣

١٠ ـ ممّا يزيد حديث السّورة الكريمة المستفيض عن البعث عمقاً كثرة الحديث عن بعض خلق الله تعالى. إنّ القادر على الخلق ابتداءً قادرٌ على الخلق عودة. ففي الآيات الكريمات من العشرين إلى الثّانية والعشرين حديثٌ عن خلق الله تعالى أبانا آدم عليه السّلام من تراب، وخلق أزواجنا من أنفسنا، وخلق السّماوات والأرض. وجاء في الآية الكريمة الثّلاثين القول ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ إلى غير ذلك من آياتٍ كريمات تحدّثت عن بعض خلق الله تعالى. وإلى ذلك سبق أن أومأنا.

١١ ـ المشركون يقرّون بتوحيد الرّبوبيّة وحده فلم ينفعهم إقرارهم، وهم يقرّون بتوحيد الألوهيّة ويفردون الله تعالى بالعبادة ساعة الشّدّة وحدها. وهذا المعنى بيّنته الآية الكريمة الثّالثة والثّلاثون. قال تعالى: ﴿وإذا مسّ النّاس ضرٌّ دعوا ربّهم منيبين إليه ثمّ إذا آذاقهم منه رحمةً إذا فريقٌ منهم بربّهم يشركون﴾ لقد دعت السّورة الكريمة كثيراً إلى توحيد الله تعالى، ونعت على المشركين شركهم.

١٢ ـ القرآن الكريم معجزٌ بمعناه ومبناه. إنه يرضي دائماً وأبداً كلّ عقلٍ بجلال معانيه، ويشبع كلّ نفسٍ بجمال مبانيه، ويطرب كلّ أذنٍ بتلاؤم أصواته. إنّ كلّ سورة كريمة لها حظّها الموفور من كلّ ذلك.

ثالثاً
سورة لقمان

سُورَةُ لُقْمَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً
لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم
بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا
كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ
بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا
خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ
لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ
لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ
وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ
إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ
وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ
خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ
بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ
مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ
مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ
وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ
عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟
مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ
ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ
وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ
وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥ ۚ
إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ
﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ
مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ
مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ
وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ
وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ
مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ
كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ
فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ
﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ
عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ
ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ
وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ
وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

بين يدي التّفسير

(١)
(المحسنون يتّبعون القرآن الحكيم، والضّالون يولّون عنه مستكبرين، والله تعالى خالق كلّ شيء، والآلهة الزّائفة لا تخلق شيئاً)
الآيات (١-١١)

سورة لقمان المكّيّة تبدأ بالحروف المقطّعة: ﴿الم﴾ وتنتصر للقرآن الكريم، على عادة السّور الّتي تبدأ بهذه الحروف المقطّعة، ولكنها تنتصر على الفور. إنّ آيات الكتاب العزيز يشار إليها باسم الإشارة: ﴿تلك﴾ دليلا على رفيع منزلة هذا الكتاب الّذي يوصف بأنّه: ﴿الحكيم﴾ وبذلك تُخْلَع على القرآن الكريم الصّفة الّتي تخلع على العقلاء. وكيف لا يوصف هذا الكتاب بالحكمة وهو الموحى به من الله تعالى الحكيم الحميد. ولا يخفى أنّ الحكمة ترتبط بالعقل أساساً. وهكذا يرضى القرآن الكريم بفصوص حكمه كلّ عقلٍ حصيف. والقرآن الكريم هدًى للمؤمنين من الضّلالة. وإنّما يهتدي النّاس في مجال المحسوسات بالعلامات وما في حكمها نهاراً، وبالنجوم وما في حكمها ليلاً. والضّلالة بمثابة الظّلمات الّتي ترتبط باللّيل عادة. وإنّما تتبدّد الظّلمات في المحسوسات بالأنوار والأضواء. والقرآن الكريم هدًى من الضّلالة المعنويّة. وبذلك يكون نور القرآن الكريم معنوياً وضوؤه. وحينما يكون النّور معنوياً فإنّه يُسَمَّى نور البصيرة ونور القلب. وبهذا النّور المعنويّ تشرق النّفس. وكأنّ وصف القرآن الكريم بأنّه: ﴿هدى﴾ يشير إلى حظّ النّفس الموفور منه. وهكذا تنال النّفس الطيبة حظّها الموفور من القرآن الكريم فاهتدت بنوره، بعد أن نال العقل الرّاشد حظّه الموفور من حكمة القرآن الكريم.

وتكون رحمة الله الواسعة ثمرة تطبيق تعاليم الكتاب العزيز الحكيم الهادي.

وهي رحمة تشمل المحسنين في الحياة الأولى، فهي حياة طيبة، وتشملهم في الآخرة فضلاً من الله تعالى ونعمة، بالخلود في جنات النّعيم.

والمحسنون يواظبون على إقامة الصّلاة عماد العبادات البدنيّة بشروطها، ويؤتون الزّكاة عماد العبادات الماليّة مستحقيها، دليلاً على تطبيق المحسنين كلّ أركان الإسلام. وهم إنّما يطبّقون أركان الإسلام والإيمان، وكذلك الإحسان، في الحياة الدّنيا دار العمل ولا جزاء، لأنّهم بشأن الحياة الآخرة، دار الجزاء ولا عمل، قد بلغوا درجة الايقان. وهكذا هم يؤمنون بكلٍّ من عالم الغيب وعالم الشّهادة، بل إنّهم بشأن عالم الغيب الّذي يغيب عنهم قد بلغوا درجة الإيقان، لأنّهم استدلّوا بما عرفوا من عالم الشهادة، على الّذي لم يعرفوا بَعْدُ مِنْ عالم الغيب.

إنّ أولئك المحسنين هم على الهدى في الحياة الأولى، وكأنّهم لتمكّنهم منه قد استعلوا عليه، وأولئك هم الفائزون في الآخرة.

وفي مقابل هؤلاء المحسنين الفائزين هنالك الضّالّون الخاسرون. إنّ هؤلاء يؤثرون لهو الحديث على أحسن الحديث، وبذلك هم يُضِلُّون الآخرين، دون علمٍ منهم بالإثم العظيم الّذي يرتكبونه حينما يصرفون الآخرين عن الخير إلى الشّر، ويصدّونهم عن سبيل الله تعالى. بل إنّ هؤلاء الضّالّين المضلّين يتّخذون آيات الله تعالى مهزوءاً بها. إنّ لهم عذاباً مهيناً في الآخرة. وإذا تُقْرأ آيات هذا الكتاب الحكيم على هذا الضّالّ المضلّ أخذته العزّة بالإثم وانصرف مستكبراً وأعرض مستنكفاً كأنّه لم يسمع آيات الله تعالى، وكأنّ في أذنيه ثقلاً. إنّه يُبَشَّر على سبيل الاستهزاء به بعذاب أليم.

إنّ للمؤمنين الّذين يعملون الصّالحات جنّات النعيم. وإنّ للضّالّين المضلّين، في المقابل، نار الجحيم. إنّ أولئك يخلدون في الجنّة، وإنّ هؤلاء يخلدون في النّار. لقد وعد الله تعالى العزيز الحكيم بذلك وعداً حقّاً.

والله سبحانه وتعالى هو المستحقّ أن يفرد بالعبادة، لأنّه هو الّذي انفرد بخلق